النهار 2020-09-28

إما الإنقاذ وإما الانهيار! فرصتنا الأخيرة للنهوض من جديد

محمد رباح

ترجمة نسرين ناضر

" إن مجدنا الأعظم ليس في عدم السقوط أبداً، بل في النهوض في كل مرة نسقط فيها."

(كونفوشيوس)

٣ أيلول ٢٠١٢: إنه الموعد الرسمي لإطلاق منطقة بيروت الرقمية. تجمّع عدد كبير من المسؤولين وكبار الشخصيات وروّاد الأعمال ومالكي الشركات للاستماع إلى الكلام الذي سيُقال عن المنطقة الرقمية التي خُيّل إليهم أنها مجرد إعلان عن مشروع جديد سينضم إلى باقي المشاريع التي لم تتجسّد على أرض الواقع. كان الحاضرون ينتظرون الكلمات التي سيلقيها المتحدّثون وهم يتساءلون لماذا يجلسون في هذه المنطقة التي دمّرتها الحرب ولم يجرؤ أحد في السابق على المغامرة بدخولها وإنشاء مشاريع فيها. كانوا يفكّرون في أنفسهم، يا لجنون الأشخاص الذين تجرأوا على الاستثمار في هذه المنطقة!

كنا فعلاً مجانين! إنما مجانين أصحاب رؤية ممتدّة لعشرين عاماً، والهدف منها تحويل لبنان إلى مركز للإنتاج حيث تحصل خيرة الكفاءات الرقمية والإبداعية التي تتخرج سنوياً من الجامعات اللبنانية العريقة، على فرصة كي تحلم بمستقبل عنوانه النجاح والازدهار. أردنا أن تكون أمامهم فرصة كي يعملوا ويعيشوا حياةً كريمة ويلعبوا مع أولادهم. وقد دأبنا على التشديد على الحاجة إلى الاستثمار في الطرق السريعة الرقمية (الفايبر أوبتك) لتمكين اللبنانيين من العمل انطلاقاً من لبنان وتأمين الخدمات للمنطقة. كنّا نعلم أن الصناعات القائمة على المجالات الرقمية والإبداعية والمعرفية هي غاز لبنان ونفطه الحقيقي، والمرتكزات الأساسية لبناء مستقبلٍ يعمّه الازدهار، بما يؤثّر إيجاباً في الناتج المحلي الإجمالي، ويؤمَل بأن يساهم في المدى الطويل في تشجيع المغتربين اللبنانيين على العودة إلى وطنهم.

في دورتها الأولى (TechCrunch Startup Battlefield) "تشرين الأول ٢٠١٨: شارك أكثر من ألف رائد أعمال وطالب جامعي في مسابقة الشركات الناشئة من "تيك كرانش في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وجاء هذا الحدث بعد انقضاء ستة أشهر على زيارة قام بها أحد نوّاب الرئيس في شركة "فايسبوك" إلى المنطقة، حيث اجتمع بأُسرة منطقة بيروت الرقمية، التي كانت تضم آنذاك ١٥٠٠ شخص يعملون في ١٥٠ شركة، متوسط أعمارهم نحو ٣٠ عاماً، وموزَّعين تقريباً بالتساوي بين سيدات ورجال. الأهم من ذلك، لمسَ بنفسه الطاقة المنبعثة من أعماق كل رائد من رواد الأعمال، واندفاعهم وتصميمهم على تحقيق مستقبل أفضل. وقد أُتيح توليد هذا الزخم المفعَم أملاً وطاقة من خلال تعاونٍ مدهش مع أفضل حاضنات ومسرّعات الأعمال، وصناديق رأس المال الاستثماري، وروّاد الأعمال، وبفضل الاجتهاد والتفاني من جانب فريق العمل الرائع. وقد استُحدِثت وظائف عدة في المنطقة الرقمية ومحيطها، وفجأةً بدأ أبناء تلك المنطقة الذين كانوا متروكين في ما مضى، يلمسون فرصة حقيقية لبناء مستقبل أفضل لأولادهم، وشعروا بالاعتزاز لأنهم جزء من المشروع.

في موازاة ذلك، كانت البلاد تواصل سقوطها في أواخر عام ٢٠١٨. كانت تنهار بسبب سوء الإدارة والجشع، وبسبب الفساد من دون أن تكون هناك أي إرادة حقيقية لمكافحته. وفي ١٧ تشرين الأول ٢٠١٩، اندلعت تظاهرات مدنية شارك فيها مواطنون ممّن يكدّون في عملهم لتأمين لقمة عيشهم، وربما كانوا على ارتباط وثيق باقتصاد المعرفة. لقد أرادوا رفع الصوت للمطالبة بالحقوق الأساسية التي يتوقّعها أي مواطن من دولته، وهي تعليم أولاده، والدعم للطبابة والرعاية الصحية، ووجود منظومة قضائية عادلة، وجمع النفايات، والحفاظ على نظافة الشاطئ، وتأمين بعض المساحات العامة، ولا شك في أن من حق المواطن أيضاً الحصول على الكهرباء! ولكن بدلاً من العمل على معالجة الأمور وتحسينها، تفاقمت الممارسات المرتبطة بسوء الإدارة، ما تسبب بأسوأ أزمة مالية عرفها لبنان في تاريخه، مع ما ترتب عليها من ارتفاع شديد في مستويات التضخم، وخسارة الوظائف، واستفحال الفقر! وكأن ذلك كله لم يكن كافياً. فعند الساعة السادسة وثماني دقائق من يوم ٤ آب، هزّ انفجار ضخم العاصمة بيروت، وقد صُنِّف بأنه ثالث أكبر انفجار في العالم. إضافةً إلى الأعداد الكبيرة من القتلى والجرحى، خلّف الانفجار دماراً واسعاً على مستوى التراث الثقافي للعاصمة، وقضى على ذكريات الكثيرين وأحلامهم وآمالهم بمستقبل أفضل. وبعدما رأت عائلات كثيرة أولادها يواجهون الموت، قررت الرحيل لأن البقاء في لبنان لم يعد يستحق العناء في نظرها؛ إنه الوقع الأسوأ لهذه المأساة المروّعة وغير المقبولة التي هزّت جميع الحالمين في الصميم!

لكن، مع كل تحدٍّ تُزهر فرصةٌ ما. لقد أدّت هذه المأساة إلى تعبئة غير مسبوقة في صفوف المجتمع الدولي دعماً للبنان. فقد تحرّكت دولٌ كثيرة لدعم الكفاءات الطامحة لإعادة إعمار لبنان، وتمويلها. فهل ننتهز هذه الفرصة ونستثمرها كما يجب كي تصبح لنا شركات وبُنى مستدامة وأُسَرٌ تنعم بمقوّمات العيش الكريم؟ هل ننتهز الفرصة لتحويل لبنان إلى مركز يؤمّن الخدمات لا للمنطقة فحسب، بل أيضاً للأسواق العالمية؟ هل سنستحدث فرصاً وظيفية للمتخرجين الجدد؟ هل سنحافظ على النظام التعليمي الذي كان وسيبقى على الدوام حجر الزاوية في تقدّم لبنان؟ هل سنصحو وندرك أن لا أحد يختار دينه عندما يفتح عينيه على هذه الدنيا؟ هل سنفهم أن ما يُميّز إنسانا عن سواه هو الأسلوب الذي يعامل به الآخرين، بغض النظر عن أوجه الاختلاف الإثنية والجندرية والعرقية؟ هل سنبدأ ببناء دولةٍ تضع خير المواطنين ورفاههم في صلب جميع قراراتها دون استثناء؟ هل سنسمّي الأكثر كفاءةً لإدارة هذه البلاد التي تتميّز بجمالها وغناها؟ وعندما تُتاح لنا فرصة التصويت من جديد، وهذا الحق هو أهم الحقوق في المنظومات الديموقراطية، هل سنصوّت بما يصبّ في مصلحة أولادنا ومستقبلهم؟ هل سنتعلم دروساً من إخفاقاتنا السابقة ونقترع بحكمة في الانتخابات النيابية المقبلة؟ إذا كان الجواب نعم، فعندئذٍ فقط سنبدأ ببناء دولة جديدة. في هذه الحالة فقط، سوف نتمكّن من بناء دولة متقدّمة في مجال التكنولوجيا الرقمية. حينئذٍ سوف نتمكن من استقطاب الأدمغة والكفاءات التي هجرت البلاد، ونجتذبها للعودة إلى وطنها الأم. وعندما يتحقق ذلك، ننهض من جديد!

الرئيس التنفيذي لمنطقة بيروت الرقمية.